مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٣/٢٠٠٤

الأحد ١٨ كانون الثاني

تذكار أبوينا الجليلين في القديسين أثناسيوس وكيرلس رئيسي أساقفة الإسكندرية

اللحن السادس

إنجيل السَحَر التاسع

الرسالة

(عب ١٣: ٧-١٦)

يا إخوةُ اذكرُوا مدبِّريكم الذينَ كلَّموكم بكلمةِ الله. تأمَّلوا في عاقِبَةِ تصرُّفهم واقتدوا بإيمانِهم* إنَّ يسوعَ المسيحَ هُوَ هُوَ أمسِ واليومَ وإلى مدى الدهرِ* لا تنقادوا لِتعاليمَ متنوِّعَةٍ غريبةٍ. فإنَّهُ يَحسُنُ أنْ يُثَبَّتَ القلبُ بالنعمةِ لا بالأطعِمَةِ التي لم ينتَفِعِ الذينَ تعاطَوْها* إنَّ لنا مَذبحًا لا سُلطانَ للذينَ يَخدُمونَ المَسكِنَ أن يأكُلوا منهُ* لأنَّ الحيواناتِ التي يُدخَلُ بدمِها عن الخطيئَةِ إلى الأقداسِ بيدِ رئيسِ الكهنةِ تُحرَقُ أجسامُها خارجَ المحلَّةِ* فلذلكَ يسوعُ أيضًا تألَّمَ خارجَ البابِ ليقدِّسَ الشعبَ بدمِ نفسِه* فلنخرُجْ إذَنْ إليهِ إلى خارِجِ المحلَّةِ حاملينَ عارَه* لأنَّهُ ليسَ لنا ههنا مدينةٌ باقيةٌ بل نَطلُبُ الآتيةَ* فلنقرِّبْ بهِ إذَنْ ذبيحةَ التسبيحِ كلَّ حينٍ وهي ثمرُ شِفاهٍ لاسمِه* لا تَنسَوْا الإحسانَ والمؤاساةَ فإنَّ اللهَ يرتضي مثلَ هذهِ الذبائحِ.

سر الفداء

نعيّد اليوم لتذكار أبينا الجليل في القديسين أثناسيوس رئيس أساقفة الإسكندرية. عاش في القرن الرابع الميلادي واشترك في أعمال المجمع المسكوني الأول (٣٢٥) وكتب عدة مؤلفات. ترتكز تعاليمه حول عمل المسيح الخلاصي وسر الفداء على ركيزتين أساسيتين: الأولى تتمحور حول شمولية الخلاص لكل الجنس البشري. فالمسيح ابن الله جدّد صورة الله جوهريًا في الإنسان لما صار هو نفسه إنسانًا. صورة الله التي فقدها الإنسان لما سقط، عادت إليه بتجسد الكلمة فأصبح الإنسان، بالنعمة الإلهية، قابلاً للرجوع إلى ما كان عليه قبلاً. أما الركيزة الثانية فتتمحور حول ضرورة موت المسيح لتحرير الجنس البشري من لعنات الخطيئة الآسرة إياه. المسيح قدّم ذاته ذبيحة تحقق بها هذا التحرير.

في مؤلفه العظيم «في تجسد الكلمة» وغيره من الكتابات، وفي مداخلاته في المجمع المسكوني الأول، يعبّر القديس أثناسيوس عن تلازم هاتين الركيزتين وتكاملهما. فهو يقول مثلاً ما معناه أن المسيح كلمة الله، بتقديمه هيكل جسده فدية عن الجميع، سدد الديون التي كانت على البشر بموته. هكذا وباقتباله الطبيعة البشرية الواقعة تحت ناموس الموت والفساد، يسبغ ابن الله الذي لا يعروه فساد نعمة عدم الفساد على الجنس البشري بأكمله. أي إن الكلمة صار إنسانًا لكي يقدّم ذبيحة الفداء، ولكي تعاد للبشر متى اشتركوا بروح الابن إمكانية الاتحاد بالله.

من يقرأ رسائل القديس بولس، لاسيما تلك الموجهة إلى مؤمني رومية وغلاطية وكورنثوس، يجد لها في تعاليم القديس أثناسيوس عن سر الفداء أصداء كثيرة. يقودنا التمعّن في تعاليم القديس أثناسيوس إلى أن الغاية الأولى من التجسد الإلهي كانت غسل الإنسان من فساده بتجديد صورة الله فيه التي كان فقدها بالسقوط. يقول القديس أثناسيوس إن إعادة عدم الفساد لكائن فاسد ليست ممكنة إلا عن يد المخلّص الذي كان في البدء عند الله (يو ١: ١). لا أحد يسعه رفع المائتين إلى الحياة الأبدية إلا من كانت له هذه الحياة، ولا أحد يستطيع تجديد صورة الله في الإنسان إلا من كان هو نفسه صورة الآب (يو ١٠: ٢٨-٣٠-٣٨). أما

الإنجيل

(لو ١٧: ١٢ - ١٩)

في ذلك الزمان فيما يسوعُ داخلٌ إلى قريةٍ استقبلهُ عَشْرَةُ رجالٍ بُرص ووقفوا من بعيدٍ* ورفعوا أصواتَهم قائلين يا يسوعُ المعلّمُ ارحمنا. فلمَّا رآهم قال لهم أمْضوا وأروا الكهنةَ أنفسَكم. وفيما هم منطلقون طَهُروا* وإن واحدًا منهم لمَّا رأى أنه قد بَرِئَ رَجَعَ يُمَجّدُ اللهَ بصوتٍ عظيمٍ* وخرَّ على وجههِ عند قَدَمَيْهِ شاكرًا لهُ وكان سامريًّا* فأجابَ يسوعُ وقالَ أليسَ العَشْرَةُ قد طُهروا فأين التِسْعَةُ* ألَم يوجَدْ مَن يرجعُ ليُمجِّدَ الله إلاّ هذا الأجنبيَّ* وقال لهُ قُمْ وامضِ. إيمانُكَ قد خلّصَكَ.

تأمل

ينبغي لنا أن نبالغ في غسل أوساخ خطايانا وتطهير قلوبنا من أدرانها وأن نتضرَّع أمام ربنا لينقّينا من برص العالميَّات والأمراض الروحية ويعدَّ لنا الذخائر الباقية في الملكوت الأبدي. ونحافظ على استماع الأقوال والتعاليم لأنها بمنزلة الملح والخميرة. فإن الكلمة اليسيرة تشتمل على المعاني الكثيرة وتكسب الحياة السعيدة للعاملين

تجديد الصورة فيعني أولاً أن يعود البشر قادرين على اشتهاء معرفة الله الحقيقية وهي الحياة الأبدية، وتاليًا اقتناء هذه المعرفة بنعمة الله. آدم كان متنعمًا بهذه المعرفة في الفردوس لكنه فقدها بسقوطه فصار نسله محكومًا بالضلال والجهل وابتعد عن عبادة الإله الحق إلى عبادات مضلّة. ولما حان في حكمة الله ملء الزمان صار البشر مشاركون في الطبيعة الإلهية عندما اشترك المسيح في الطبيعة البشرية بالتجسد. غالبًا ما يشير قديسنا إلى هذا الاشتراك على أنه نوال لنعمة التبني: «بتجسده صيّرنا الابن الوحيد أبناءً لله وألّه الإنسان لما صار هو نفسه إنسانًا». ولأن الكلمة هو مبدأ الحياة (يو ١: ٣-٤)، أبيد فينا مبدأ الموت وعادت إلينا نعمة عدم الفساد التي كنا فقدناها بالسقوط. عمل الفداء إذًا هو إعادة خلق قام بها الكلمة، الذي به كان كل شيء منذ البدء.

يجب الانتباه إلى أن تعابير القديس أثناسيوس تشير إلى أنه ينظر إلى الإنسان نظرة شمولية، أي متضمنة الجنس البشري بأسره في كل زمان ومكان. عليه فإن الكلمة لما اتخذ طبيعة هذا الجنس البشري مالئًا إياها بألوهته، صارت قوّته المؤلّهة برسم البشرية جمعاء، بات التجسد فداءً بالفعل. ذلك أن أمراض الطبيعة البشرية وإعاقاتها القديمة لم يعد لها مكان في وجه قوة التطهير الإلهية التي حملها الكلمة بتجسده إلى الجنس البشري. يقول القديس أثناسيوس «بما أن البشر أجمعين فسدوا بسبب عصيان آدم، كان ينبغي تطهير الطبيعة البشرية من أساسها وهو ما حققه الكلمة لما أتحدَ طبيعة آدم بألوهته. نحن بتنا مخلَّصين لأننا أصبحنا والمسيح جسدًا واحدًا». هنا أيضًا يتردد بقوة صدى تعاليم الرسول بولس (رو٥:١٥). تشديد القديس اثناسيوس على شمولية الجنس البشري بالخلاص، بسبب انتماء الإنسان في أي وقت ومكان إلى جوهر طبيعي واحد، لا يعني بأي شكل من الأشكال أن تألّه الإنسان بالمسيح الكلمة هو فعل طبيعي يحدث من تلقاء نفسه لأي إنسان. نير الخطيئة رُفع عن كاهل البشر أجمعين، لكن عطية التنعّم بالحياة الأبدية هي للذين يسعون في حياتهم الأرضية إلى الشركة الحميمة مع الروح القدس، الذي يتحدهم بابن الله وعبره بالآب. «هكذا وبفيض خيريته تجاه بني البشر يصبح الله بنعمته أبًا للذين هم في الأساس خليقته»، يقول القديس أثناسيوس.

لكن من هم، وبشكل أوضح، هؤلاء الذين تؤول إليهم هذه النعمة؟ يجيب القديس موضحًا أنهم كل إنسان مخلوق يؤمن بالنور ويلتزمه (يو ١٢: ٣٦) فيقتني روح الابن الصارخ «يا أبّا الآب» (غلا ٤: ٦). هؤلاء نالوا من روح الابن نعمة التبني فصاروا أبناءً للآب. الذين هم بالطبيعة مخلوقون، لا يصبحون أبناءً للخالق إلا متى نالوا روح ابن الله المسيح الذي هو وحده ابن بالطبيعة.

ظاهريًا قد تبدو عقيدة الفداء لدى القديس أثناسيوس مبنية على قاعدة استبدال ضحية بأخرى. لكن جوهر تعليم القديس أن زوال حالة الموت الرازح تحتها الإنسان، تم بجسد الرب نفسه. طُهر الكلمة المتجسد وبرارته اللذان لا يفي بهما وصف أبادا لعنة الموت التي ما كان لنا التحرر منها لولا تجسّد الإله (رو ٨: ٣). خلاصة الفداء في فكر قديسنا أننا وكما بانتمائنا لآدم ورثنا الموت، بانتمائنا إلى المسيح نغلب الموت ونرث الحياة الأبدية. (١ كو ١٥: ٢٢).

بها. وكما أن الذين يطلبون الكنوز والمعادن الفاضلة يختلفون في ما يلتقطونهُ لأن منهم من يجمع كثيرًا من الفضة والنحاس والحديد وغير ذلك، ومنهم من يتمسَّك بحجرٍ صغيرٍ من الياقوت فيحصل منه على أموالٍ كثيرة أفضل من أولئك الذين يجمعون الأصناف الكثيرة. فكذلك الذين يطلبون الكنوز السمويّة تتفاوت نتائجهم لأنك ترى بعضهم مجتهدين في القراءة والمجادلات والبحث في الكتب الغريبة ولا يعملون بشيءٍ من ثمرات علومهم. وآخرين يتمسَّكون بكلمةٍ قصيرة اللفظ كثيرة الفوائد ويضبطونها ويحافظون على العمل بها فيرثون بواسطتها الحياة الأبدية ويشابهون الذي ظفر بالدّرة الكريمة وفضَّلها على الأموال والأملاك والمتاجر. وإذ قد عرفنا قدر هذه المواهب الفاضلة فلنبذل الجهد في نصح الأقارب والأباعد وانتشالهم من وهدة المعاصي وتحريضهم دائمًا على الاعتناء بخلاص نفوسهم والهرب من التطوُّح في الأباطيل العالمية. لأنه إذا كان عدوُّنا لا ينام فكيف لا نواظب على السهر ونحذر من الكسل ونتيقّظ من الغفلة حاملين سلاح

معمودية يسوع

«لما آثرت أن تخلّص الإنسان الضال لم تأنف أن تتسربل صورة عبد. فإنه قد لاق بك أيها السيد الإله أن تتقبل ما لنا من أجلنا. لأنك كما اصطبغت بالجسد أيها الفادي أهلّتنا للغفران. لذلك نهتف إليك أيها المسيح إلهنا المحسن المجد لك» (من غروب الظهور الإلهي).

عندما جاء الرب يسوع إلى نهر الأردن ليعتمد على يد النبي والسابق يوحنا المعمدان، مانعه هذا الأخير وقال للرب: «أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ» (متى ٣: ١٤). يبقى السؤال المطروح دائمًا: لماذا أتى يسوع، ابن الله، ليعتمد من يوحنا؟ علمًا أن معمودية يوحنا كانت معمودية توبة، وكان الناس يعتمدون على يده «في الأردن معترفين بخطاياهم» (متى ٣: ٦)، ويسوع لم يكن يحمل خطيئة، بل مهمته المسيانية أن يشفي العالم من الخطيئة عبر طهارته هو ويرجع الجنس البشري إلى الشركة مع الحياة الإلهية. كيف يأتي المخلّص ليعتمد ممن هو بحاجة للخلاص، من جبلته هو، من خليقته التي أتى لينقذها؟

بقبوله المعمودية يماهي الرب يسوع نفسه مع كل البشر، مع كل الخطأة دون استثناء. يماهي نفسه مع كل خاطئ بحاجة للغفران والخلاص والولادة من جديد. يماهي نفسه مع كل واحد منا بالتحديد. بقبوله المعمودية يعلن السيد المسيح أنه لم يأتِ ليدين ويجازي، أو ليضع القوانين والأحكام من الخارج، من فوق، من أعالي كماله وألوهيته، بل أتى لكي يتحد نفسه معنا، حتى بصيرورته واحدًا منا يمكن أن يجعلنا مشتركين في حياته الكاملة والخالية من الخطيئة. هذا هو تفسير ما قاله يوحنا عن الرب يسوع عندما رآه مقبلاً نحوه: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم» (يو ١: ٢٩).

عندما وُلد المسيح في هذا العالم كطفل اتخذ لنفسه طبيعتنا البشرية وجعلها طبيعته. ابن الله صار ابن الإنسان. لم يقم بهذا لأجل الأبرار والصدّيقين، بل لأجل الخطأة والضالين. لقد أحبهم محبة مضحية وأعطى نفسه وحياته لهم. وفي قبوله المعمودية من يوحنا يتشارك معنا نحن الخطأة وهو الخالي من الخطأ؛ يتشارك معنا نحن الضالين وهو المخلّص. عندما اعتمد في الأردن، اتحد المسيح نفسه مع حياة البشر الخاطئين، كما اتحد نفسه مع البشر في الموت وهو غير المائت. كل ذلك دليل على أن المسيح يريد أن يخلّصنا بالمحبة وبها فقط. لكن المحبة تعني قبل كل شيء الاتحاد مع من تحب، كما قال الكتاب «هو أخذ أسقامَنا وحملَ أمراضنا» (متى ٨: ١٧) و«بجُبُرِهِ (جراحه) شفينا» (أشع ٥٣: ٥).

لقد شاء أن يكون المسيح في معموديته كسائر البشر خاضعًا للناموس والشريعة، وهو الله واضع الشريعة. قال ليوحنا «اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمّل كل برّ» (متى ٣: ١٥). ماهى نفسه مع البشر حتى بخضوعه للناموس والشريعة. أهمية خضوعه للشريعة تكمن في الإعلان الإلهي. هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت (متى ٣: ١٧). الإنسان الذي يخضع لشريعة الله يستحق لقب ابن الله.

لقد ابتعد الكون عن الله ونسيه ولم يعد يراه، بل انغمس في الخطيئة والظلمة والموت. لكن الله لم ينسَ الكون. في معموديته يُعيد الكون إليه وإلينا مشرقًا الجمال الذي كان له في أول الخلق، كون المياه هي عنصر

إيماننا. وإذا كان جهادنا كما قال الرسول ليس مع لحمٍ ودمٍ بل مع الأرواح الخبيثة فكيف لا ينبغي لنا أن نُعِدَّ لهذه المعركة أسلحةً تلائمها. فإنه كما أن الذين يحاربون الأجسام اللحميّة يتحرَّون باتخاذ الأسلحة الملائمة لها كالسيوف والرماح والسهام يجب على الذين يحاربون الأرواح الشريرة أن يتخذوا الأسلحة الملائمة لها. فإن قلت وما هي هذه الأسلحة أجبتك هي الصوم النقيُّ والصلاة الخاشعة والتواضع والرحمة وبقيَّة أنواع الفضائل. واسمع قول الرسول كيف يوضح هذه الأسلحة بقوله ضعوا على رؤوسكم خوذة الخلاص وخذوا بأيديكم ترس الإيمان وتمنطقوا بمناطق الحق واتخذوا سيف الروح واحذوا أرجلكم ببشرى السلام والبسوا جميع سلاح الله. وبكل صلاة وبكل طلبةٍ تتضرَّعون في كل وقتٍ لكي تقدروا على مقاومة حِيَل الشيطان وخداعه. فإذا تسلحنا بهذه الأسلحة المنيعة لا نهرب من القتال ولا نخاف من المعركة لكن ننهض من نومنا ونجتهد في قتال أعدائنا ونحصّن ذواتنا لنفوز بالغلبة قاهرين مسرورين بنعمة ربنا وإلهنا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

الحياة الأول وبالتالي صورة رمزية للكون ولكل الخليقة، نزل الله إلى المياه وقدس رحم الطبيعة المفيض للحياة، لتصير المياه ومن خلال الكون نبعًا للحياة والخلق الجديد. في المعمودية نعيّد لقدوم الله نحو خليقته كلها، الإنسان والعالم.

في يوم الظهور الإلهي يبارك الكهنة المياه ويقدسونها بنعمة الروح القدس، ويرشّون هذا الماء المقدس علينا وفي منازلنا لكي يتبارك الكون كله بماء الحياة. الرب نفسه نزل إلى المياه وقدّسها، وفي الظهور الإلهي نحيا هذا الحدث من جديد: «صوت الرب على المياه يهتف قائلاً». أهمية هذه المياه المقدسة نفهمها من خلال قول الرب يسوع: «إن عطِشَ أحدٌ فليُقبل إليّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حيّ» (يو ٧: ٣٧ –٣٨). في الظهور الإلهي كل شيء في هذا العالم بما فيه المادة، أي المياه، يصبح من جديد طريقًا لنا نحو الله، نحو الشركة معه، نحو النمو في الحياة الأبدية.

لقد أتى المسيح ليجدد كل الخليقة، ونحن نحتفل بهذا التجديد كلما دخل الكاهن ليبارك منازلنا وكنائسنا ومراكز عملنا بالماء المقدس، وكلما شربنا من هذا الماء الحيّ الحامل الحياة الأبدية. فلنفرح بالرب الذي تنازل وحمل خطايانا ومنحنا نعمة ووسيلة لكي نعود إليه.

أمسية مرتلة

مساء الأربعاء ٧ كانون الثاني أقامت جوقة مدرسة الموسيقى في أبرشية بيروت أمسية مرتلة في كنيسة نياح السيدة في رأس بيروت. عند انتهاء الترتيل خاطب سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس مرتل الكنيسة منذ أكثر من نصف قرن الأستاذ الياس متري المر قائلاً:

... كثيرون يرنمون ويرتلون ويعتبرون الترتيل مهنة. الشعب يرنم وكأنه يغني. جميل أن نرنم الترانيم الكنسية، ولكن الأجمل أن نرنم ونرتل ونحن شاكرون. المؤمن كربه يسوع شاكر في كل حين. عندما أتى يسوع إلى قبر لعازر قال: «أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي» (يو ١١: ٤١–٤٢).

الترتيل الحقيقي الذي مارسه وعاشه ابننا البار الياس في هذه الكنيسة والأبرشية، هو الترتيل المكرّس للرب. كلكم تعلمون أن الرب امتحن الياس منذ فترة وألمه الكبير لم يكن أنه مرض ودخل المستشفى بل كان يبكي في كل حين لأنه لم يكن بإمكانه أن يسبّح ربه.

... كنت أفكر بماذا يمكن أن نكرّم هذا الإنسان الذي كان يشدو ويغنّي غناءً إلهيًا ويرنم ترنيمًا سماويًا آخذًا إياه من والده البروتوبسالتي الأول في الكرسي الانطاكي متري المر، ومن عائلته.

واجبنا أن نشكر أي إنسان يعمل لتمجيد الله. الأستاذ الياس يقودنا في تسبيح الرب بصوت جميل وموسيقى جميلة وبورع عميق. دعاؤنا اليوم أن يمنحه الله الصحة والعمر المديد، وأن يتمثّل به كل من يريد أن يرنم ترنيمًا صحيحًا، وأن ننشد معًا هذه الأناشيد التي بها نسبّح الله الخالق وابنه الوحيد وروحه القدوس ووالدته العذراء وجميع القديسين. آمين.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb